هل يسمع شعراؤنا ؟

لم يزل الشعر في كل عصر وفي كل أمة مرآة صافية تنعكس فيها اخلاقها وعوائدها واميالها واتجاهاتها ولم يبرح مثالا قائماً لما بلغته الامة من حضارة وما لعبته من أدوار وما مرّ عليها من أخطار فهو سجل للحوادث خالد وترجمان الامة ومنطق الحكمة ، وقد قال فيه الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله : لو سألوا الحقيقة أن تختار لها مكاناً تشرف منه على الكون لما اختارت غير بيت من الشعر .

والشاعر الحقيقي من يستطيع أن يرسم بشعره صورة لخلجات نفسه وأمل أمته وينطق بالصواب الذي لا يتطرّق اليه الكذب ولا المبالغة ولا يفسده الغموض والابهام والبهرجة والتهريج وهذا من البديهيات التي لم تبق بحاجة الى التعريف :

إذا الشعر لم يوقظ من الشعب راقداً
فلا قذفتْ درّ القوافي بحورها
ورب قواف من دموع نظمتها
فكانت عقوداً والاماني نحورها
يعزّ على عيني البكاء وانما
على ذكر أوطاني يفيض غديرها

بلى ان الشعر دموع القلوب وذوب الافئدة وفيض الشعور ولا يزال هو تلك النسمة العلوية والنفحة الطيبة التي تهب على القلوب فتنسيها الهموم وتجلي عنها الغموم التي تكدسها مصاعب الحياة ونكبات الدهر وطالما هبّ المحزون الى ديوان الشعر ومقطوعاته يهدئ بها النفس ويلتمس فيها السلوى:

إذا ما به غنى المغنون هاجني
فثار بما غنوا سروريَ والحزن
إذا الشعر لم ينهض بآدب أمة
إذاً خابت الآمال في الشعر والظن

***

ولقد كان لهذا المغرب في عصوره الغابرة وأيامه الزاهرة شعراء استوحوا شعرهم من جمال المغرب الفتان وسمائه الصافية ونسيمه المنعش ومناخه الطيب وكثرة مياهه العذبة وانهاره الجارية وبساتينه المخضرة واشجاره الباسقة ومناظره الساحرة للب والمبهجة للقلب فكان شعرهم صورة للواقع ورسماً لنفسيتهم وخواطرهم ومثالا من الشعر الاندلسي الرقيق بما فيه من عذوبة وانسجام ورصف متين ووصف بديع ، وقد ساعدهم على ذلك جوارهم واتصالهم بالفردوس المفقود ، ولم تخل هذه الديار من نهضة أدبية وطائفة صالحة من الشعراء كبني العزفي وأمثالهم الذين خلدوا للشعر المغربي آثاراً لا تزال محفوظة في المخطوطات ومدخرة في الخزائن المتعددة بالمغرب الى أن يهيئ الله من يحيي ذلك الاثر الدفين ويقوي عزيمته من أوتي الاستعداد الكافي لدراسته دراسة بحث وتحليل .

ولنا حتى اليوم والحمد لله حمداً كثيراً طبقة كبيرة من الشعراء وشيوخ القريض ولا تخلو مدينة من مدن المغرب حتى في أقصى سوس من شاعر بل من شعراء فقد تعددوا وكثروا حتى أوشك كلامنا أن يصبح شعراً وخشينا أن يمسي كل من يحمل قلماً ويعرف الهجاء شاعراً بدون وجل وخوف محاسب ومعقب ، وهذه عوامل الفوضى السائدة في وسطنا الادبي شجعها عدم وجود حركة للنقد والتزييف وقلة الصحف التي تفسح المجال للنقد وتقوي حركته وتساعده على النمو والازدهار ، وعندي

لو أن حركة مثل هذه موجودة الاثر لعجلت بالقضاء على الفوضى الظاهرة واجتثت كل الشخصيات التي اعجبتها الالقاب وخدعتها البهرجة والاطراء ، وفي عام مضى سرتنا بعض فصول نشرت بمجلة المغرب تحت عنوان (أبحث عن شاعر) كانت كتمهيد لحركة النقد ومفتاح لبابه الذي ظل مغلوقاً وأوجف بعض الشعراء خيفة على شخصياتهم وشاعريتهم من أن يمتد اليهم المبضع وتجري فيهم العملية فوق المشرحة التي كانت مهيئة في ذلك الحين ولكن العملية انقطعت فجأة ولعل الكاتب أمسك عن الاتمام بدافع العاطفة الغلابة ورقة القلب واشفق على اولئك الشعراء وعلى مراكزهم التي يتمتعون بها مطمئنين ، ولكن لا ، فقد أرضى قوماً وسرى عنهم واحنق آخرين لبثوا منتظرين لنتيجة البحث ومجهود العملية ، والنقد يجب أن يظهر أثره ويعمل مفعوله وعار أي عار أن نهجره مقتنعين بالسكوت ولا نحرك الاقلام لاثارة الحركة المقصودة لتحطيم هذه الاصنام التي أزعجتنا في كل مناسبة وصدعت الافكار وأقلقت الخواطر بكثرة ما تخرجه من الشعر الركيك والنظم السخيف وصار جناية على الادب العربي واستخفافاً بحقه الذي يجب أن يصان ، وليس يضيرنا ان فعلنا غضب شاعر من الشعراء ولا يضرنا حنق بعضهم وما يقولون ما دمنا الى جانب الحقيقة نعمل لخدمتها وننهض بعبء لا مندوحة عن القيام به وما دام رائدنا الانصاف لا نظلم فرداً ولا نحط من قيمة شخص ، وهذه صحف الشرق ومجلات مصر على الاخص تعني بالنقد عناية فائقة وتطلع علينا بمقالات مليئة بنقد شعراء تلك الجهة ولا تكاد تخرج المطابع ديواناً حتى يسرع اليه الكتاب وتتلقفه الاقلام فتشبعه نقداً وتحليلا ، أفلا يكون لنا بعض اقتداء بهم ومسايرة لخطتهم وانتهاج لمسلكهم المأخوذ عن صحف الغرب فتتطهر ساحة ادبنا قليلا ويخلو الجو للمجيدين ويظهر لنا أدب ممتاز يصلح أن يكون صورة واضحة لناحية من نواحي الحياة بهذا الوسط ؟

أعتدنا في شهر المولد النبوي الكريم أن نقرأ بالسعادة — جريدة الافراح والمآتم والاقامة والظعن — تحليات لبعض القصائد المولوية ، والسعادة في هذا الباب لا تبخل بالالقاب ولا تظن بالنعوت فالقصائد عندها كلها عصماء ودرر غراء حتى اذا فرغت من التحليات وانتهيت إلى القصائد خرجت منها وانت منقبض الصدر مندمل القلب تلعن الشعر وتلهث من التعب وذلك أثر الشعر الركيك من القلب ومفعول النظم السخيف في النفس ، وقد هيأت لي المناسبة في العطلة العيدية ان اطالع ما جادت به القرائح في هذا الغرض فقرأت قصيدة الاستاذ المؤرخ سيدي عبد الرحمان بن زيدان وقصيدة ثانية للفقيه السيد عباس الشرفي في الوداع فاذا بهما لا يختلفان بشيء عن كل ما يصدر من امثالهما في هذا الباب ولا تقلان درجة عن بقية شعرهما المعدود فأقرأ معي الابيات الاولى من قصيدة الزيداني :

نور النبوة في جبينك ساطع
وبملكك الاسنى استنار الطالع
والنصر والفتح المبين تسابقا
لمقامك العالي وكل خاضع
سعدت بطلعتك التي من دونها
سعد السعود من السعود مطالع

والمستهل كما تعهد في مختلف الشعر يختاره الشاعر ليكون في منتهى السمو والاعجاز وليترك في النفس الاثر المحمود ويدفع بالقارئ إلى الاستزادة ويبعثه على الاسترسال حتى النهاية ولكنك حين تقع عيناك على هذه الابيات

ما ذا عساك انت شاعر به من الاهتزاز والانفعال ؟ هذا حكمه إلى ذوق القارئ فليمعن وليشهد بالحق ، أما البيت الثاني فمكانته من الابتذال ظاهرة جلية ملت الاسماع من تكرار معناه السنين الطويلة وسئمت النفوس من الفاظه المتداولة ، كليشي بالى من كثرة الاستعمال وطابع عتيق لا يرسم واقعاً محسوساً ، أما البيت الثالث فقد تكررت فيه لفظة السعود والسعود والقافية كما في علمك من حرف العين وفي السعد سين وعين فصار الكل عيوناً ـ حفظك الله ـ وحكم هذا حكم ما وقع لذلك البيت الجاهلي :

الا لا يجهلن احد علينا

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فلله من هذه الجهالات ومن تتابع الجيمات ، وقول الاعشى :

وقد غدوت الى الحانوت يتبعني

شاو ، مشل شلول شلشل شول

ومثله بيت أبي الطيب :

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا

قلائل عَهٍّ ، كلهن قلائل

ونظيره له : أرق على ارق ومثلي يارق

واذا كان للشريف ابن زيدان من يشاركه في هذا التعقيد وفساد التركيب وليس هو وحده الذي وقع في مثل هذا الاستهجان فنحن نغض الطرف ونتسامح على أنه مقلد معذور ، وقصيدته التي نريد تتبعها بالنقد تقع في نحو الثمانين بيتاً أو تزيد وتحتاج الى فراغ كبير ومجال أرحب من صفحات المجلة التي تعني بشئون اخرى علمية واجتماعية بيد أن معناها لا يزيد ولا ينقص عما ألفناه ونقرؤه في مثل هذه المناسبات المولدية والتهاني العيدية .

والفقيه الشرفي ثاني اثنين اذ هما فرسا رهان في مجال المدح وميدان التهاني والتبريك وهو كسابقه لا يدع الفرصة تمر دون أن ينتهزها ولا يفوته عيد أو رحلة سيد من غير ان يهيأ لها قصيدة من نظمه المعروف ليقدمها برهاناً لولائه واخلاصه وزكاة لوظيفته التي يتمتع بها الآن بعد عطل طال حبله وامتد أجله ، وقد كان قبل هجر الشعر وأخلد الى الراحة فأراح واستراح ولا يقوله الا في فترات يحدثه فيها شيطانه على حد تعبير كتاب اليوم ان صح الزعم وكان لكل شاعر شيطان يوحي الشعر ويلهم القريض .

ولقد يعجبك من هذا الشاعر عدم الاطالة وتعدد الابيات كما يطيل زميلاه الشاعر المطبوع والمؤرخ السابق الذكر فقلما تزيد قصيدته على العشرين قافية الا اذا قصد التطويل وبلغ الاربعين وهو قليل وتلك حسنة من حسنات شاعرنا الى الناس الذين لا يستطيعون الاناة على قراءة المطولات وفعلٌ منه جميل الى هذه النفوس المتضجرة التي لا تقوى على تحمل قراءة شعر فج ونظم لا لحم فيه ولا دم ولا غذاء للروح التي وجد الشعر لأجل تغذيتها وانعاشها وايقاظ الاحساس وبعث الشعور ، وقصيدة الشاعر الشرفي من هذا النوع القصير وموضوعها وداع جلالة السلطان المعظم ولا نجد ندحة عن عرض أبيات منها كشاهد ومثال :

تغيب ولكن لا تغيب عن القلب

وتظهر من بعد كما أنت في القرب

يواجهك الاسعاد واليمن حيثما

حللت وعين الله ترعاك عن كثب

لقد كنت نوراً في الرباط وحوزه

ومذ غبت صرنا في ظلام وغيهب

ولعل هذا المطلع يصلح أن يكون مستهل قصيدة في النسيب وهو به الصق وحبذا لو فعل ليصف لنا بعده ما

يلقاه من هجر المحبوب وما احدثه الفراق من الوجد المشبوب فغاب ولكن لم يغب عن القلب والطيف لا يزال ماثلا لم يبرح مرفرفاً والسعد واليمن يواجهانه وعين الله ترعاه أينما حل ، وتلك هي عواطف المحبين تغلب عليهم الشفقه فيحنون وتفيض الرقة فيقابلون الهاجر بالرضى واعينهم كليلة لا تنظر بعين السخط فهم راضون بما فعل الحبيب في القرب والبعد والوصل والقلى ، كان يجب حيث بدأ القصيدة بذلك البيت أن يصرفها الى موضوعها المتصلة به ، اما موضوع وداع جلالة السلطان فموضوع له جلاله وخطره فكان الصواب أن تكون القصيدة مليئة بالامال التي سيحققها الملك في رحلته فياضة بالثقافة والاستفادة التي سيملأ منهما وطابه ليضع لنا منها في المغرب نظيراً وشبيهاً .

وسامح الله الشاعر فلم يكد يصل الى البيت الثالث حتى نفرت القافيه من بيتيها الاولين وفرت بعد سكون واضطربت الرنة الموسيقية اللازمة للشعر فبرد الدم الذي أوشك أن يفور وخمدت الاعصاب قبل أن تثور .

وهذا النفور في القصيدة كثير والضعف في معانيها ظاهر فليس بين ابياتها ارتباط ولا بين روحها اتصال فاقرأ بعد ذلك التوجع الباكي هذين البيتين :

أراه كاسماعيل جد جدوده
شجاعاً مبيداً يوم فاجعة الحرب

ومثل ابن عبد الله في العلم والتقى
وإلا فكالزهري الامام أو الشعبي

ولست والله ادري ما علاقة الزهري والشعبي بالشعر ؟ أو هي القافية اذا جفت وضاقت ولم يبق للشاعر منها مزيد انطلق يبحث عنها بين الاسماء ورجع للذاكرة يستعرض اسماء شيوخ العلم ليسد بهم ثلمة تركها جفاف القافية ونضوب معين الفكر ، وهكذا وقع لشاعرنا في البيت الآتي ايضاً الذي ينسيك انك في مجالي الشعر ويذكرك بعهد الدروس ويستحضر امامك شيوخ الفقه ورجال الحديث :

ويرفعه العلم الصحيح لصفه الـ
جدير به كالمازري او الابي

وأشهد الله ان هذه الابيات التي عرضتها امام القارئ هي مختار ما في القصيدة من نظم ، أما بقية اشطارها فكلها أوصاف باردة وتشابيه ضئيلة أكل الدهر عليها وشرب ومل منها الفكر وضجر فلا تعدو التشبيه بالبحر والنور والكرم والندى كما السحاب ، ومولانا السلطان فوق هذه التعابير الضعيفة الميتة التي لا تدل على شيء ولا تقدر جلالته التقدير الكافي ونحن هنا ننقل قضية طريفة تناقلتها كتب التاريخ والادب وتصلح أن تكون عبرة لشعرائنا ونصيحة لهم حين يزمعون النظم قال الربيع صاحب المنصور العباسي : قلت للمنصور ان الشعراء ببابك وهم كثيرون طالت ايامهم ونفذت نفقاتهم ، فقال اخرج اليهم فاقرأ عليهم السلام وقل لهم من مدحني منكم فلا يصفني بالاسد فانما هو كلب من الكلاب ولا بالحية فانما هي دويبة من الارض تاكل التراب ولا بالجبل فانما هو أصم ولا بالبحر فانما هو عطائط لجب ومن ليس في شعره هذا فليدخل ومن كان في شعره فلينصرف فانصرفوا كلهم الا ابراهيم بن هرمة قال انا له يا ربيع فادخلني فادخله فلما مثل بين يديه قال المنصور قد علمت أنه لا يجيبك احد غيره هات يا ابن هرمة فانشده قصيدته التي منها هاته الابيات :

له لحظات عن جفا في سريرة
اذا كرها فيها عذاب ونائل

له طينة بيضاء من آل هاشم
اذا اسود من كرم التراب القبائل
اذا ما أتى شيئاً مضى كالذي أتى
وان قال أنى فاعل فهو فاعل

فقال حسبك هاهنا بلغت هذا عين الشعر .

وفي الحق اننا لا ندعو الى تقليد هذا الشاعر بل نطمع أن نرى شعراءنا يتسابقون في حلبة الاجادة في الابتكار والسمو في المعاني والجزالة في الالفاظ اما الضرب على وتيرة ما غبر وترديد المعاني العقيمة وتكثير الجناسات فتلك بضاعة خاسرة واسلوب لايلائم ذوق العصر ولا يناسب الروح الجديدة الثائرة التي علمتنا كيف نميز الطيب من الخبيث .

والشعر عند هذه الطبقة قد بلغ قمة الهرم فيلزم تلقيحه والمطروقات لا تزال عندهم محدودة والمواضيع محصورة واكثر ما تدور على المدح والرثاء والتشبيب المرذول ولا داعي الى هذا المدح الا الاستجداء والاستنداء وطلب الحظوة وشرف المنزلة ، والشعر في عصرنا الحاضر قد ترفع عن الزلفى وسما عن هذا الغرض الحقير فيجب ان يتحول شعراؤنا ويعطفوا ابصارهم لما يدور حولهم من مخترعات وينظروا نحو الطبيعة ففيها مجال واسع للخيال وفي الكون جمال خالد ملهم لشعر التصوير وابداع الوصف .

أما المدح الكاذب والرثاء النادب والتغزل بليلى وهند وليس هناك ليلى ولا هند ولا بالمنزل احد وزم المطايا وحدو النياق والنجائب والوقوف بالرسوم وندب الاطلال فلنا من هذه الدواوين المكدسة ما يغنينا عن قول الشعراء .

فلينصفوا انفسهم اذا لم تكن لهم قدرة على مجاراة العصر الحديث وليريحوا الناس بسكوتهم فهو خير لهم وأبقى لذكرهم فلسنا مغفلين الى درجة يحسن معها السكوت عن هذا الضرب من الهذيان ولسنا بسطاء نمر مر العميان وندع الفوضى الادبية تسير سيرها الممتد ونترك شعراءنا يلعب بهم الغرور المتناهي فيحسبون أنفسهم على شيء ونسلم في جانب أدبنا الذي تفاخر به الامم فيبقى متأخراً منحطاً موقوفاً على اصنام يعبثون به ويهدمون صرحه من هذه الديار التي كان لها مقعد العز والشأو البعيد في هذا المضمار من حيث لا يعلمون .

هذه كلمة اولى كتبناها تقدمة للموضوع وتمهيداً لفصول اخرى تأتي بعد حين وسنتناول كل شاعر على حدة ونستعرض بعدهم شعراء الشباب لنعلم هل قاموا بواجب العصر وابدعوا المثال الصالح كنموذج لشاعريتهم المستقبلة أم هم يجرون كما يجري الحمل وراء القطيع ، ثم لا يفوتنا بعد الفراغ من الشعراء تناول المؤلفات التي برزت بالطبع لتكون في ميزان النقد النزيه وبين جناحي الحلم فيقتص من الباطل وينصف الحق ويرد كل سرقة الى كيسها وعسى أن نوفق والتوفيق من الله وحده والى اللقاء ! ...

ابن عباد

ان الكاتب النبيل أعرف الناس بشعرائنا ، وفي مقاله حدة لا تناسب لهجة المجلة ، والافكار حتى في المشرق — كما يظهر ذلك جلياً من أحوال مصر وغيرها من البلاد العربية في الجرائد والمجلات — لا زالت لم تتهيأ تماماً للنقد المطلق ، وسياسة التدريج حسنة في كل شيء ، ولكن منذ قديم عرف الشعراء واتباعهم (والشعراء يتبعهم الغاوون) بالخروج عن كل نظام ، وكل تطرف في حقهم مقبول ، فلم نر والحالة هذه لنا من حق في حجز هذا المقال ، وغاية ما هنالك أنا ننشر على صفحات المجلة كل ما يرد علينا من الكتاب الافاضل في الموضوع من غير تدخل منا في شيء من ذلك .

والحق أن الحالة الادبية في وسطنا المنكود تبرر هاته المفاجأة العنيفة من قبل الناقد الخبير ، فقد أعيانا الشعراء ، وقد أعيانا

الادباء ولا بد من ثورة تدفع عن هاته الديار الطيبة كل ما يقلق الراحة بين مناظرها البهيجة من شعر ميت وأدب فارغ .

وبعد هذا فلنا كلمات : فان الكاتب البارع أشار الى سلسلة مقالات لنا تحت عنوان (أبحث عن شاعر...) قطعناها بعد المقالة الثالثة وانتقد علينا ذلك ، والجواب : أنا كنا نقصد بتلك الكتابات أغراضاً محصورة كالقضاء على الالقاب وفتح باب النقد ، وقد كفى ما كتبناه للحصول على ما كنا نقصده من الاغراض ، ومن خطتنا كلما تم المراد من شيء ذهبنا الى غيره ، كما سبق لنا بيان ذلك في العدد الخامس عشر .

وانتقد أيضاً على رصيفتنا « السعادة » الغراء استعمال الالقاب في غير محلها واهتمامها باخبار لا تروقه ، و« السعادة » اذا قوبلت بغيرها من الجرائد الرسمية في البلاد الاخرى فانها تفوق كثيراً منها من جميع الوجوه ، على أن جل القراء يهتمون باخبار الوفيات والتوسيعات والاسفار اكثر من اهتمام كاتبنا بالشعر وذويه طبعا ، وكيفما كان الامر فان الكتابة في رصيفتنا من قبيل السياسة والرجاء من مساعدينا الافاضل أن يتباعدوا قدر المستطاع عن ذلك لما يعلمون من أن هذه المجلة لم يبق لها تدخل في السياسة بوجه من الوجوه .

هذا وقد شاءت الظروف أن يتلقى الصدمة الاولى من النقد رجال يعرفون النقد ويتحملونه بصدور رحبة ، فان الشريف الجليل مولاي عبد الرحمان بن زيدان من عظماء الايالة الذين لم ينفروا من الجديد وأعانوا على الحركة الاصلاحية باقدام جدير بكل اكبار ، وهو من الرجال الافذاذ الذين يحق لنا أن نفتخر بهم ونفاخر ، فنقد شعره لا ينقص من قدره ولا يحط من منزلته ، والعلماء عادة لا يحسنون الشعر واذا تعاطوه فانما يقصدون به التسلية واراحة النفس من عناء المطالعة والبحث ، وانما نقرؤ نظمهم لما يشتمل عليه من الارشاد والحكمه تارة وللتبرك أخرى ، على أن من بينهم من برعوا في الفن واجادوا فيه كالقاضي عياض ومن جملة أبياته :

أنظر الى الزرع وخاماته
تحكي وقد ماست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة
شقائق النعمان فيها جراح

وكذلك للعلامة المؤرخ مولاي عبد الرحمان بن زيدان في بعض المواطن شعر رائع .

وأما الفقيه السيد عباس الشرفي فوظيفه لا دخل له في الموضوع ولعل الكاتب أشار اليه على سبيل المهازحة لا غير ، وقد كان الفقيه تقلب في خطط سامية آخرها رياسة المحكمة العليا بالاعتاب الشريفة وفي جميعها كان مثال الحزم والنزاهة والعمل ، وهو من كبار الادباء الذين يشهد لهم بالفضل والمقدرة ، واذا قال الشعر فعن عقيدة صادقة ، والعقيدة تكمل ما يلاحظه الناقد البصير من النقص في الصناعة .

هذا وقد نرى الشعراء منذ عامين يخرجون في القصائد المولوية عن المسطرة القديمة ويتقدمون الى ما يتمناه الكاتب ـ من جملة ما يتمناه ـ من طرق المواضيع التي تلائم العصر والاحوال ، فقصيدة العلامة معمري في الحفلة الاخيرة تناولت في بعض أبياتها باب الاحسان واعانة الضعفاء ، وقصيدة العلامة ابن زيدان عرجت على بعض الشئون الحالية الشاغلة للافكار .

فليخفف اذاً صاحبنا الفاضل «الوطأ» وانا لفي انتظار المقالات التي وعدنا بها وعد الكرام على أحرّ من لهجته الصادقة .